***المحاضرة الثانية***

***جوانب من الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني***

**أولا ـ التعليم ومستوياته:**

**أ ـ مؤسسة الأوقاف مصدر التعليم:**

تشهد كتب الرّحالة الأجانب الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني أن التعليم كان منتشرا وأن كل جزائري تقريبا كان يعرف القراءة والكتابة، وقد كان التعليم حرا من سيطرة الدولة ومن سيطرة الحكام العثمانيين، فكان سكان كل قرية ينظمون بطرقهم ووسائلهم الخاصة تعليم القرآن والحديث والعلوم العربية والإسلامية، لأن دراسة هذه العلوم هي السبيل إلى معرفة وفهم أسرار هذا الدين والقرآن والسنة، ولذلك كان القرآن أساسا للتعليم في الجزائر سواء كان تعليما ابتدائيا أو ثانويا أو عاليا، وكانت المدارس على مختلف مستوياتها تمول وتغذى بالأوقاف التي يحبسها أهل الصلاح والخير من الرجال والنساء، وفي بعض الأحيان كان يحبسها موظفون سامون في الدولة كعمل من أعمال الخير، فكان هناك أملاك خاصة وعقارات وأراض يذهب ريعها لبناء المدارس وتوظيف للمعلمين وتوفير المساكن للطلبة، فالأوقاف كانت الأساس في تدعيم التعليم وحماية الطلبة والمعلمين.

ولم تكن كل الأوقاف مخصصة للتعليم فقد كانت هناك أوقاف لعدة مصالح أخرى مثل: العناية بالحج، وتسمى أملاك مكة والمدينة، وهناك لإقامة العيون وحماية الثكنات، وهناك أخرى لبناء واستصلاح المساجد والزوايا كأوقاف (سبيل الخيرات) وهي عبارة عن جمعية كانت تشرف على ثمانية مساجد في العاصمة، وكانت هناك أوقاف خاصة بالجامع الكبير بالعاصمة أيضا، بالإضافة إلى أوقاف أخرى كانت منتشرة في مختلف مدن الجزائر.

وقد كان هناك قيم أو وكيل على مؤسسة خيرية، وكانت مهمته العناية بالأوقاف ومراقبة الدخل، وكانت الأوقاف لا تباع إلا في الأحوال النادرة وعندما يخشى عنا التلف، فإذا كانت عامة فإن الدولة تعيين عليها موظفا رسميا، أما إذا كانت خاصة فإن هناك مجلسا يقوم بتعيين رجل صالح يراقبه المجلس، وهناك أخطاء قد ارتكبت ولا سيما في الأحوال العامة حيث الرقابة ضعيفة إلا من الضمير.

**ب ـ مستويات التعليم:**

بخصوص التعليم الذي كانت ترعاه هذه الأوقاف فقد كانت على ثلاثة مستويات: الابتدائي والثانوي والعالي.

**1 ـ التعليم الابتدائي:**

بالنسبة للتعليم الابتدائي كان كل طفل بين السادسة والعاشرة يذهب إلى المدرسة، والملاحظ أن هذا بخصوص الأطفال الذكور، أما الإناث فلا يذهبن إلى المدارس إلا نادرا، ولكن أصحاب البيوتات الكبيرة كانوا يجلبون أستاذا معروفا بصلاحه وعلمه لتعليم البنات، وفي كل قرية صغيرة أو (دوار) كانت هناك خيمة تدعى (الشريعة) خاصة بتعليم الأطفال ويشرف عليها مؤدب يختاره سكان القرية لهذا الغرض، أما في المدن والقرى الكبيرة فقد كانت هناك تدعى (مسيد) أو مكتب، وكانت غالبا ملحقة بالوقف، وإلى جانب ذلك كل جامع تقريبا يضم مدرسة للتعليم أيضا.

كان لكل مؤدب أجرة خاصة ولكنها كانت غير قارة، فهي تختلف حسب حالة أولياء التلاميذ المادية، كانت كل أسرة تدفع على قدر حالها، وفي الأعياد وعندما يحفظ الطفل القرآن يأخذ المؤدب أجرا إضافيا، وكثيرا ما يجمع المؤدب إلى وظيفته تحفيظ القرآن وظيفة أخرى كالإمامة والأذان.

وكان المؤدب محل احترام سواء كان في القرية أو المدينة ويعيش بالمقارنة عيشة طيبة، وتذكر بعض المصادر أن أحد المؤدبين في قسنطينة كان يتقاضى حوالي ثلاثين فرنكا سنويا على الطفل الواحد من الهدايا والتعويض عند حفظ القرآن والأجرة المعينة، وكان لدى المؤدب حوالي 25 طفلا، فكان يناله حوالي فرنكين في اليوم بالإضافة إلى دخله من بعض الوظائف الأخرى، ولم يكن هناك رقابة رسمية على المؤدب المهم أن  يكون يعرف جيدا القراءة والكتابة، أما أهل البادية فكانوا يرسلون أطفالهم للتعليم في المدن حيث يقيمون عادة مع عائلات صديقة أو يصرف عليهم مجانا من الأوقاف. وتذكر المصادر أنه كان في كل قرية مدرستان، وكانت المدن تختلف في عدد المدارس فقسنطينة في عهد "الحاج أحمد باي" كانت تضم 86 ابتدائية، وكان يتوزع عليها حوالي 1350 تلميذا، وكان في تلمسان في نفس الفترة حوالي 50 مدرسة ابتدائية.

ومدة التعليم الابتدائي حوالي أربع سنوات يتعلم الطفل خلالها مبادئ القراءة والكتابة ويحفظ القرآن وأركان الإسلام وشعائر الدين، وإذا كان الفقراء يكتفون بهذا القدر من التعليم فإن الأغنياء يواصلون تعلمهم، وبذلك يدخلون المرحلة الثانوية .

**2 ـ التعليم الثانوي:**

كان التلميذ يستطيع أن يواصل تعليمه الثانوي في الجامع أو في مدرسة ملحقة بالأوقاف، وكان التعليم الثانوي مجانا، وكان الباي هو الذي يسمى المدرس باقتراح من الناظر، ويتلقى المدرس أجرته من الأوقاف وهي تبلغ مائة إلى مائتين من الفرنكات سنويا، وكان يسكن مجانا، وغالبا ما يجمع إلى وظيفته كمدرس وظائف أخرى كالقضاء أو الإفتاء، وكان يسود اعتقادا أن المدرس يقضي وقته يعد الدروس، ولذلك يأتيه الناس بالضروريات كالماء والزيت للمصباح، كما كانوا يأتونه يوميا بحلويات رمضان وملابس العيد، والطعام، ومن جهة أخرى التلاميذ أيضا يحصلون من الأهالي على الحلوى والزيت للمصباح وعلى السكن مجانا والماء.

كان في العاصمة وقسنطينة وتلمسان جوامع ومدارس وزوايا لإيواء التلاميذ، ففي قسنطينة حيث كان 35 جامعا و7 مدارس، كان 150 تلميذا من 700 يحصلون على أجرة سنوية من دخل الأوقاف تبلغ 36 فرنكا، وكان معظم هؤلاء التلاميذ من سكان الأقاليم وقد أعدت لهم زوايا خاصة لسكناهم بلغت 16 زاوية. وكان في العاصمة 6 زوايا لهذا الغرض: ثلاث لعرب الغرب واثنتان لعرب الشرق، أما الأخيرة فقد أعدت لإيواء المدرسين في العاصمة واللذين ليس لهم عائلات مقيمة. أما تلمسان فقد كان فيها عدد كبير من هذه الزوايا، كما كان فيها مدرستان إحداهما مدرسة الجامع الكبير والأخرى مدرسة أولاد الإمام، وفي ضواحي تلمسان كانت أيضا مدرسة عين الحوت.

والزوايا لم تكن مقصورة على المدن، بل كانت هناك زوايا في الأرياف تقام تخليدا لأحد المرابطين ويقام بجانبها مكان للصلاة وبئر للشرب والوضوء، وتخصص الأرض لهذه الزوايا الريفية فيحرثها الأهالي ويستعمل دخلها لمساعدة المدرسين والطلبة، ويخصص أهل الخير جزءا من محصولهم السنوي للزاوية التي توجد في منطقتهم، وكانت الزوايا منتشرة ولاسيما في الغرب الجزائري، وكان في منطقة تلمسان وحدها أكثر من 30 زاوية، وهناك أخريات منتشرات في جهات الونشريس ومعسكر وسيدي بلعباس ومستغانم. أما متيجة ومنطقة جرجرة فقد كانت تضم أكثر من ثماني زوايا أشهرها زاوية البركاني قرب شرشال، وزاوية ابن علي الشريف في أقبو، وزاوية النميلي في بني موسى، ..الخ.

وكان يتلقى العلم في المرحلة الثانوية حوالي 3000 تلميذ في كل إقليم من الأقاليم الثلاثة، وكانت الدروس تشمل على النحو والتفسير والقرآن، وينال الطالب في النهاية (إجازة) تشهد له بأنه قدر درس جميع العلوم التي تدخل في نطاق تخصصه: والإجازة ليست شهادة مكتوبة ولكنها تعبير شفوي من المدرس إلى التلميذ، ومتى حصل التلميذ على الإجازة يصبح (طالبا) يستطيع قراءة القرآن في الجامع ويتولى وظيفة مؤدب أو كاتب.

**3 ـ التعليم العالي:**

ليس هناك فصل واضح بين التعليم الثانوي والعالي، والأستاذ الذي يدرس في العالي يسمى (عالما)، أما عدد الطلبة فقد كانوا بين 600 إلى 800 في كل إقليم يواصلون تعليمهم العالي، وكان الأساتذة في هذا المستوى يتقاضون أجورهم من الأوقاف أيضا، وكانت الدروس العالية تعطى في الزوايا وأهم الجوامع، ففي إقليم وهران كان الجامع الكبير في تلمسان وجامع سيدي العربي والزاوية القادرية (التابعة لأسرة الأمير عبد القادر)، وفي إقليم الجزائر كانت زاوية ابن المبارك بالقليعة، وزاوية مليانة، وزاوية بني سليمان، وزاوية ابن محي الدين، أما في إقليم قسنطينة فهناك الجامع الأخضر وجامع سيدي عقبة، وزاوية ابن علي الشريف في جرجرة.

وأهم مواد التعليم العالي هي النحو والفقه الذي يشمل العبادات والمعاملات والتفسير والحديث والحساب والفلك، بالإضافة إلى التاريخ والطب. لكن كان يغلب على الدراسة طابع العصور الوسطى وقلة التجديد والحفظ، وهناك عدد من الجزائريين درسوا وتخرجوا بهذه الطريقة في العهد العثماني، ولكنهم اختفوا في بداية الاحتلال الفرنسي. وقد كان "حمدان خوجة" ووالده من الذين درسوا على هذه الطريقة، ولكن الجزائريين المنتجين كانوا قلة، وكانت الدراسة في شكلها الذي تمّ وصفه تساعد على إخراج الموظفين في المجال الديني والكتابة ولكنها لا تساعد على إخراج المنتجين في ميدان الفكر والأدب. **الحياة الأدبية والفكرية والعلمية والفنية في العهد العثماني**

**أ ـ الأدب والفكر:**

إذا عدنا إلى الحياة الأدبية فإننا نجد بعض المحاولات الطيبة ولكنها لا تدل على نهضة ثقافية، فقد شهد القرن الثامن عشر عملين من كتابة الرّحلات: أحدهما للمفتي المالكي "أحمد بن عمار" الذي سجل ملاحظاته أثناء رحلته إلى مكة، وثانيهما "حسين الورتيلاني" الذي كتب أيضا في رحلته إلى المشرق.

وشهد علوم الفقه وأصول الدين تقدما على يد "عبد الرحمن باش تارزي القسنطيني" والشيخ "عبد العزيز الثميني الميزابي"، أما في الأدب فإننا نجد الشيخ "محمد بوراس الناصري" يخلد شعرا ونثرا انتصار "محمد الكبير" باي وهران على الإسبان سنة 1791، ويسجل فرحة المسلمين بعودة وهران إلى الحكم الإسلامي.

ونتيجة لضعف العربية الفصحى انتشر بين الناس انتشر الأدب الشعبي، الذي أصبح ميدانا للتعبير عن خلجات الشعب في السّراء والضراء، وقد لمعت أسماء أمثال: "ابن مسايب التلمساني" و"سيدي ابن علي" في هذا الميدان، وكلاهما في القرن الثامن عشر. أما في القرن التاسع عشر فنجد شعراء سجلوا بعض خواطرهم في الأحداث الهامة كما فعل الشيخ "عبد القادر الجزائري" في قصيدته عن احتلال الجزائر، والشيخ "قدور ولد محمد" الذي كان يهاجم "الأمير عبد القادر" بينما كان الشيخ "الطاهر بن حواء" ممدحهُ. أما في ميدان الشعر الفصيح فهناك "الأمير عبد القادر" الذي سجل معاركه وانتصاراته بشعره، وله ديوان مطبوع في هذا الموضوع، وقد كان "حمدان خوجة" يقرض الشعر أيضا، ولكن شعره الذي وصل إلينا ضعيف ومتصنع.

أما الأعمال التاريخية فلم نجد أشياء هامة، ولكن يمكن أن نذكر بعض الأمثلة، من ذلك الرسالة التي كتبها "عبد القادر المشرقي" بعنوان ((بهجة النّاظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر)) والعنوان يدل على المحتوى، والرسالة في حوالي 24 صفحة.

وقد كتب "حمدان خوجة" كتابه ((المرآة)) نشر الجزء الأول ووعد بنشر الجزء الثاني ولكنه لم يظهر، و((المرآة)) عمل تاريخي هام يعتبر من أهم الوثائق المعاصرة للاحتلال الفرنسي، وقد كتب من وجهة نظر جزائرية، فهو مصدر من المصادر الضرورية لفهم ردود الفعل التي أحدثها الاحتلال الفرنسي في سنواته الأولى. كما له تأليف أخر بالعربية الذي يحمل عنوان ((إتحاف المنصفين والأدباء)) و"خوجة" في هذا الكتاب يظهر أنه عصري الروح طليق العبارة واسع الاطلاع على أحوال بلاده وعصره. وفي هذا المجال التاريخ كتب أيضا "أحمد بن المبارك" ((تاريخ قسنطينة))، كما كتب "محمد الصالح العنتري" (تاريخ بايات قسنطينة)).

**ب ـ العلوم:**

أما العلوم فقد كانت ضعيفة، وكان باشوات الجزائر يوظفون الأجانب للعناية ببعص الأشياء الدقيقة أو الفنية، ومن ذلك توظيف أحد الفرنسيين للعناية بالساعات الكبيرة التي كانت الدول الأوروبية تهديها إلى الباشا، وتوظيف أجانب آخرين للعناية بالمدفعية، وبناء السفن، ونحو ذلك. وبدل الاهتمام بتكوين الجزائريين من الوجهة الفنية اعتمد الباشوات والمسؤولون العثمانيين على بعض الأرقاء المسيحين الذين كانوا يلبون حاجات الباشا. ومع ذلك فإن الجزائيين قاموا بمساعدة بعض الأجانب ببناء قنطرة وادي الشلف سنة 1814 التي اشترك فيها حوالي 300 من الجزائريين و167 من اليونانيين، وهناك قنطرة وادي الرمل في قسنطينة التي بينت في عهد "صالح باي" التي أشرف عليها "بارثولوميو" الإسباني، وقد أظهر الجزائريون مهارة فائقة في بناء المنازل الجميلة والقصور البديعة، وشبكات المياه والفورات والعيون، وظهر في العهد العثماني تأثير العثمانيين في المساجد، كما ظهر التأثير البيزنطي.

**ج ـ الطب:**

 لقد أهمل الجزائريون الطب سواء القديم منه أو الأوروبي المعاصر، فلم يكن هناك مستشفيات باستثناء الزوايا التي كانت تأوي العجزة والمرضى، وكان المرجع في هذا الميدان هي كتب الأقدمين كـ "ابن سينا"، وقد كانت فوائد الأعشاب معروفة للناس، فألف الشيخ "عبد الرزاق الجزائري" كتابا في فوائد الأعشاب، ولم يكن هناك امتحان ولا مهنة للأطباء، والذين يقومون بالعلاج هم غالبا مرابطون يدوون بالجن والأرواح، وليس بالعلم، وكان بعض حملة الشهادات الذين يعالجون مرضاهم في دكاكين تشبه دكاكين أصحاب الحرف الأخرى.

 أما أعمال الجراحة فكان يقوم بها الحلاقون الذين يلجأون أيضا إلى استعمال الكي، ومنذ القرن السادس عشر كان في مدينة الجزائر مستشفى إسباني خاص بالمسحين، ولم يكن للسلطة العثمانية أي تدخل في مهنة الطب ما عدا تعيين (جراح باشي) الذي كان من الجنود الانكشارية، والذين كان يصحب الجيش في الحملات الكبيرة للعناية بالجرحى. وفي بعص الأحيان كانت السلطة تستفيد من خبرة الأطباء الأجانب الذين يؤخذون أسرى، فالألماني ّ"بفايفر" أصبح سنة 1825 الطبيب الخاص ورئيس الطباخين في القصر، وعند دخول الفرنسيين سنة 1830 كان "بفايفر" هو الطبيب الوحيد الذي كان يعالج الجرحى الأتراك والأهالي، وقد ترك مذكرات هامة تسجل دخول الفرنسيين وتصف حالة الجزائر عندئذ. ومن جهة أخرى كان لبعض القنصليات أطباء خاصون، ولعل ضعف الطب هو الذي يفسر ارتفاع نسبة موت الأطفال في الجزائر وانتشار بعض الأمراض المعدية كمرض الزهري الذي جاء به الأوروبيون خلال القرن السادس عشر.

**د ـ الفـــــن:**

رغم القيود الدينية في المجال الفني فإن هناك بعض الفنون قد شهدت تقدما ملحوظا، من ذلك فن العمارة في تلمسان وقسنطينة وبعض مساجد العاصمة، وهناك بعض الصور التي حملها أصحابها من الشّرق إلى الجزائر وقلدها السكان، وقد تقدم فن تزين البيوت من الداخل (الديكور) وظهر فيه الذوق المحلي، وكانت الجزائر تستورد الرخام من إيطاليا، كما كانت تستورد الفسيفساء من تونس وإسبانيا وإيطاليا أيضا، وامتاز قصر "مصطفى باشا" بأعمال الزينة المستوردة من هولندا، وقد ظهرت براعة الجزائريين في الأعمال الخشبية كالأبواب المنقوشة والشّرفات ذات الأعمدة الجذابة، وبالإضافة إلى ذلك امتازوا بأعمال الزرابي ذات الذوق الرّفيع، والفخار الملون الجميل، والطراز بالذهب والفضة.

**ه ـ الموسيقى:**

في ميدان الموسيقى كان الريفيون يستعملون آلات محلية كالبندير والطبلة والقصبة، وكان عرب المدن يستعملون آلات أخرى أكثر دقة كالربابة والقانون والعود والدّربوكة والجواق، وكانت الألحان إما أندلسية وإما محلية متأثرة بها. وكانت هناك فرق موسيقية متعددة تجد مجالها في المقاهي وفي المناسبات الاجتماعية والدينية: الزواج، الطهارة، المولد النبوي، ورمضان.

وكان للأتراك فرق موسيقية خاصة، كما كان للشخص الميسور فرقة خاصة بهم، وهناك  فرق موسيقية خاصة بالحملة أو الحملات العسكرية، وكان للباشا نوعان من الموسيقى: موسيقى العشية وموسيقى الصّباح، أما آلات الموسيقى التركية فقد كانت النّاي والغيطة والطّبلـ، حتى الزّنوج كانت لهم موسيقى خاصة وآلات تكاد تكون خاصة مثل الطّبلة الكبيرة والقراقب والغنبري.

**و ـ الرقـــــــص:**

كان الرقص أيضا شائعا ولكن لدى الممتهنين فقط سواء كانوا رجالا أو نساء، فالرجل المحترم وكذلك المرأة المحترمة لا ترقص على الأقل أمام الناس، وكان الرقص عملا فرديّا، وقد كان الرقص في المدن متأثرا بالرقص الشّرقي، أما الرّقص في الرّيف فقد كان يمتاز بطابع محلي، وفي أحيان كثيرة كانت الراقصة مغنية.

**الطرق الصوفية في العهد العثماني**

مثلت الطرق الصوفية ـ بصرف النظر عن توجهاتها الفكرية والسلوكية المختلفة ـ من أهم مكونات المجتمع الجزائري لفترة طويلة من الزمن، فالمؤرخون يتفقون على أنها بدأت في الانتشار في الجزائر، وكسب نفوذ اجتماعي ابتداء من القرن *16*م، ثم أخذت تنمو وتتسع حتى انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن *18*م والربع الأول من القرن *19*م، فهي بالتالي تشكل جزءا مهما من تاريخ الجزائر الديني والثقافي والاجتماعي، بل والسياسي.

**أ ـ تعريف الطرق الصوفية:**

هناك عدة تعاريف للتصوف في الماضي والحاضر وسنتوقف عند تعريف "ابن خلدون" الذي يقول: ((وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيها مما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة))، وحسب رأي "ابن خلدون" أن ذلك كان معروفا في الصحابة والسلف، فالتصوف عنده هو: عبادة ومجاهدة للنفس ومحاولة لإدراك الحقيقة.

كما قال في موضع آخر: ((ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والعرفان)) أي أن غاية التصوف هو التوحيد والمعرفة. وفي مكان آخر يذكر ابن خلدون أن أصل التصوف (ويسميه الطريقة أو طريقة القوم) هو محاسبة النفس على الأفعال والتروك.

 أما رجال الطرق أنفسهم فيختلفون حول تعريف التصوف حسب الوسائل التي يستعملونها للوصول إلى أهدافهم. إن البعض يراه في الممارسات والوسائل التي توصل إلى الحقيقة، وهي ممارسة التقشف والقيام بالواجبات الشرعية على أتم وجه والتحلي بالأخلاق والفضائل وتجنب كل الشبه والمزالق. بينما يراه آخرون منهم الوصول إلى الإلهام والكشف والرؤى والسرحان في عوالم الأسرار الغامضة. ولكن النتيجة واحدة تقريبًا؛ فهي التسامي والتطهر للوصول إلى الدرجة العليا في القربى إلى الله ونيل رضاه.

 وانطلاقا من هذا المفهوم كانت كل طريقة صوفية تعتمد ـللتّدليل على صحتها وشرعيّتها ـ على سلسلة من الصّالحين والأعلام تتّصل دائما بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي بدوره ـحسب الطرق ـتلقى أوراد الطريقة وأذكارها وتعاليمها عن جبريل عليه السلام عن ربّ العزة جلّ جلاله، والرسول صلى الله عليه وسلم بدوره لقنها لعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

**ب ـ الطرق الصوفية في الجزائر:**

***1* ـ الطريقة القادرية:**

تعد الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية التي دخلت الجزائر عن طريق بجاية، ثم انتشرت في الغرب الجزائري والجنوب الغربي من الصحراء وبافي مناطق الجزائر وغرب تونس، وفروعها كانت موجودة في مختلف المدن ولها زوايا وأضرحة ومساجد في الجزائر وتلمسان وغيرها، كما كان لها أوقاف كثيرة، كانت ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم في بغداد.

وتمثل القادرية أساس ومنطلق كل الطرق الصوفية في الجزائر، فالمدينية (نسبة إلى أبي مدين شعيب بن الحسين) تفرعت عن القادرية، وتفرعت عن المدينية الطريقة الشاذلية، وعن الشاذلية تفرعت طرق كثيرة كالدرقاوية والجزولية واليوسيفية والعيساوية والشيخية والطيبية والحنصالية، وإن كانت الشاذلية قد تفرعت عن القادرية إلا أنها أخذت منحى صوفيا يختلف الصوفي القادري.ويقدر الفرنسيون عدد أتباعها في الجزائر سنة *1882*م بـ (*574.14*إخوانيا و *268* مقدما و *29* زاوية).

تنتسب الطريقة القادرية إلى الشيخ "عبد القادر أبو محمد محي الدين بن أبي صالح عبد الله" وقيل "ابن موسى جنكي دوست الجيلالي" نسبة إلى مدينة جيلان (وراء طبرستان)، ولد بجيلان عام *1088*م وقد إلى بغداد عام (*488*ه) *1095*م حيث درس الفقه الحنبلي، ويقال أيضا أنه لم يهتم بالصوفية حتى حضر مجلس الشيخ "أبو حمد الدباسي. في عام (*521*ه) *1127*م أي عندما جاوز الخمسين من العمر أصبح من أشهر علماء بغداد في الفقه الحنبلي، ثم لبس لباس الصوفية وبني لنفسه مدرسة عام (*528*ه) *1135*م، لم ينضم أي أحد إلى طريقته خلال حياته، وبعد وفاته بدأ الناس يسيرون على نهجه، وقد أخذ المريدون بنشر الطريقة فكان لها مواقع كثيرة في العالم الإسلامي ومنه شمال أفريقيا، توفي الشيخ "عبد القادر" سنة *561*ه ودفن في مدرسة ببغداد. وهو يعتبر عند المتصوفين سلطان الأولياء، وقطب الأقطاب، والغوث، وعضد الإسلام، وله كرامات وخوارق تنسب إليه، وأتباعه يحلفون بجاهه. ويلقبونه أيضا بمولى بغداد، والشيخ الجيلاني عالم وله تآليف منها (لطائف الأنوار).

الزاوية الأم للطريقة توجد في بغداد، ولها فروع في الجزائر، وكل فرع مستقل عن الآخر، وأصحاب هذه الفروع يتصلون مباشرة بالأصل في بغداد، إذ أن السلسلة تَرِدَان من هناك، وعلى كل فرع من فروع الزاوية مقدم. وهناك من يذكر أن أول من أسس فرعًا للقادرية في الجزائر هو الشيخ "مصطفى بن المختار الغريسي" حوالي سنة (*1200*ه) *1785*م بالقيطنة الواقعة على وادي الحمام قرب مدينة معسكر. والواقع أن فروع هذه الطريقة كانت موجودة من قبل في مختلف المدن، ولها زوايا وأضرحة وقباب ومساجد في الجزائر وتلمسان وقسنطينةـ وبجاية وغيرها. ولها أوقاف كثيرة، كانت ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم ببغداد، وقد بقي الحال كذلك في العهد الفرنسي أيضا. ومن أشهر الذين تولوا مشيخة الزاوية بعده ابنه "محي الدين" والد الأمير "عبد القادر الجزائري بطل المقاومة الجزائرية في القرن *19*م.

***2* ـ الطريقة الرحمانية:**

تعتبر الطريقة الرحمانية أوسع الطرق انتشارا في عموم الجزائر إبان القرن *19*م حيث كانت تستحوذ وحدها على أكثر من *50*بالمائة من عدد الزوايا حسب إحصائية عام *1892*م للمستشرف الفرنسي "لويس رين" بلغ عدد زوايا الطريقة الرحمانية *188* زاوية، وأتباعها *156214* إخوانيا. وتنتشر هذه الزوايا خصوصا في الشرق والوسط والجنوب حتى في تونس، ومن هذه الزوايا (زاوية صدوق، برج عزوز، طولقة، أولاد جلال، خنقة سيدي ناجي، قسنطينة)، ومن أهم مراكز الطريقة في أواخر العهد العثماني: الحامة قرب العاصمة، وآيت إسماعيل ببلاد القبائل، وزاوية صدوق بناحية سطيف، والبرج قرب طولقة، أولاد جلال، وخنقة سيدي ناجي، ووادي سوف، والمراكز الأربعة الأخيرة تقع بالواحات. ويذكر عن الطريقة الرحمانية أنها قامت بدور محوري في نشر التضامن بين سكان المنطقة ونشر العلم والتآخي خاصة في الريف القسنطيني.

يعود تأسيس الطريقة الرحمانية إلى "محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري الأزهري" المولود حوالي *1720*م في قبيلة آيت إسماعيل التي كانت جزءا من حلف قشتولة في قبائل جرجرة، الواقعة على بعد *15*كلم شرق مدينة ذراع الميزان (تيزي وزو)، ويلقب بالزواوي نسبة بلاد زواوة التي نشأ به، كما يلقب بالأزهري نسبة إلى جامع الأزهر (مصر). زاول تعليمه الأول في مسقط رأسه، ثم واصل تعليمه في الجزائر العاصمة، وفي عام *1739*م توجه لأداء فريضة الحج، وفي عودته استقر بالجامع الأزهر فترة طويلة مترددًا على العلماء وشيوخ التصوف مثل "محمد بن سالم الحفناوي"، حيث أصبح "محمد بن عبد الرحمن مريدًا وتلميذًا له حيث أدخله الطريقة الخلوتية. وبعد أكثر من ثلاثين عاما عاد إلى الجزائر بعدما تلقى الأمر من شيخه في مصر "محمد بن سالم الحفناوي" بالعودة إلى بلده ونشر الطريقة الخلوتية، وكان ذلك عام (*1177*ه) *1757*م، حيث أسس زاوية بمسقط رأسه (آيت إسماعيل) وشرع في الوعظ والتعليم، وقد التف حوله جموع الناس من سكان جرجرة.  ولكي يوسع من دائرة دعوته أنتقل إلى (الحامة) بالقرب من العاصمة ويأسس بها زاوية وأخذ في نشر تعاليم الطريقة الخلوتية، لكن سرعان ما أثار سخط المرابطين والعلماء ربما خوفا على نفوذهم. فعاد إلى مسقط رأسه وبعد ستة أشهر من عودته جمع مريديه وأخبرهم بقرب أجله وعين من يخلفه في منصبه وهو "علي بن عيسى المغربي"

لم يحصر "محمد بن عبد الرحمن" نشاطه في نشر دعوته الدينية الصوفية على منطقة جرجرة والعاصمة فحسب، وإنما مدّ نشاطه أيضا إلى اقليم الشرق الجزائري حيث قام بتعيين خليفة له من أبناء قسنطينة وهو "مصطفى بن عبد الرحمن بن الباش تارزي الكرغلي"، فقام هذا الأخير بنشر تعاليم الطريقة في الإقليم الشرقي حيث نصّب عدة مقاديم أشهرهم "محمد بن عزوز" في واحة البرج قرب بلدة طولقة. بعد وفاته (*1208*ه) *1793*م ازدادت الطريقة الرحمانية نجاحًا واتسعت دائرة نفوذها مما زاد في هياج الأتراك وحنقهم، لذا فقد قاموا بمحاولة لوضع حد لتدفق الزوار من كل مكان غلى الزاوية الأم بآيت إسماعيل فدفعوا بثلاث مجموعات استطاعت إحداهما نقل جثمانه إلى الحامة حيث دفن في احتفال مهيب، ثم بنوا عليه مسجدا وقبة، على أن سكان قرية آيت إسماعيل حينما تحققوا أن الجثة لم تفارق قبرها الأصلي بعد أن نبشوه اعتقدوا أن جثة شيخهم قد ازدوجت ومنذ ذلك الحين لُقب "محمد بن عبد الرحمن" بـ :(بوقبرين).

مهما يكن من أمر؛ فإن خليفته "علي بن عيسى" الذي بقي مدة *43*عامًا في منصبه (من *1208*ه ـ *1251*ه) استطاع أن يدير الزاوية الأم بكل حكمة ونجاح، مما أكسب الطريقة انتشارًا واتساعًا في النفوذ سواء في وسط البلاد أو شرقها وجنوبها، إلا أن موته أفقد إدارة الزاوية الالتحام والوحدة حيث أن خلفاءه لم يتمكنوا من بسط هيمنتهم على مقاديم الزاوية البعيدة التي أهلنت استقلالها عن الزاوية الأم.

***3* ـ الطريقة التيجانية:**

ظهرت الطريقة التيجانية في أواخر القرن *18*م على يد مؤسسها الشيخ "أحمد التيجاني" المكنى بـ "ابن العباس أحمد محمد التيجاني الشريف" وقد تواجدت مراكزها في الجزائر في العهد في : عين ماضي وتيماسين والأغواط وتوقرت وورقلة ووادي سوف.

ولد "أحمد التجاني في عين ماضي سنة (*1150*ه) *1738*م فقرأ بها على شيوخها القرآن إلى أن بلغ نحو العشرين سنة فتوجه إلى فاس لأخذ العلم على علمائها. وتنقل إلى عدة مناطق منها (بوسمغول ـ توات ـ لبيض سيدي الشيخ، تلمسان وغيرها)، وبفاس التقى بأعلام التصوف وتحاور معهم وأخذ عنهم تعاليم التصوف ومبادئ التربية الروحية، وكان أول أساتذته الشيخ "أحمد بن حسان القادري" من مدينة فاس ثم تتلمذ على يد الشيخ "مولاي الطيب الوزاني" شيخ الطريقة الطيبية، وقد دام مكوثه بمدينة فاس حوالي *18* سنة كان خلال يدرس ويتفقه في شتى العلوم الدينية والشرعية. وفي سنة *1773*م وأثناء رحلته إلى الحج ولما بلغ منطقة الزواوة أخذ عند الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري وأخذ عنه الطريقة الرحمانية الخلواتية، ثم واصل رحلته إلى أن بلغ مقصده في شهر يناير *1774*م هناك اتصل بشيخ هندي يدعى "أحمد بن عبد الله" وهو صوفي ورع وتفي زاهد فجالسه مدة شهرين اثنائها توفى الشيخ الهندي، وخلف للتجاني عمله ومعارفه في الطريقة الصوفية. وفي رحلته مر التجاني بالقاهرة وهناك التقى الشيخ "محمد الخيضري" الذي فوضه لنشر تعاليم الخلواتية في شمال افريقيا، فانطلق مباشرة إلى مدينة فاس حيث مكث مدة يتعلم ويعلم العلوم الدين وأسس الطريقة الصوفية الخلواتية، ثم انتقل إلى مدينة تلمسان ومنها توجه إلى قصري بوسمغون والشلالة بالصحراء الشرقية، وهناك بنى خلوة له وانقطع للعبادة، فمكث بها ما يقارب ثمانية عشر سنة داعيا إلى مذهبه، ثم انتقل بين المناطق الصحراوية الفاصلة بين توات والسودان الغربي وتونس يدعو إلى الإسلام وينشر تعاليم طريقته الصوفية، فكان كلما نزل بمكان استأنسه أهلها أطال المكوث عندهم مربيا ومرشدا ويؤسس هناك زاوية له يعين عليها مقدما يكلفه بتلقين طريقته. واستمر بنشر دعوته إلى أن وافته المنية سنة *1815*م بمدينة فاس المغربية، التي استقر بها بعد مطاردة باي وهران "محمد الكبير" له واستلائه على قرية عين ماضي، وترك ذخرا كبيرا من المؤلفات الدينية أهمها: (الإرشادات الربانية بالفتوحات الإلهية من فيض الحضرة الأحمدية التيجانية، وهي شرح لقصيدة الهمزية للبوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، و'جواهر الحقائق في شرح الصلاة المسماة ياقونة الحقائق والتعريف بحقيقة سيد الخلائق).